مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد2، العدد3، (جانفي2014)
ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

الملحمة الإغريقية

بين الأصول الشرقية وماهيتها التاريخية

أ. طبيب نوال

جامعة الجزائر2

مقدمة:

استحوذت الحضارات القديمة على جانب كبير من اِهتمام مؤرخي وباحثي العصر الحديث، والواقع أن هذا الاهتمام كان موجوداً من قبل، لأن تلك الحضارات هي أساس قيام الحضارات الحديثة، والاكتشافات الأثرية اليوم أظهرت ما كان مجهولاً من قبل، ووضحت ما لم يكن مفهوماً بصورة سليمة، إذ جلبت الآثار البابلية والمصرية والإغريقية اهتمام هؤلاء الباحثين و إعجابهم بما تضمنته من براعة التصوير و التعبير والنحت، وأبرزت المظاهر الحضارية لتلك الأمم في العصور الضاربة في القدم.

ولما كان الفرد بحاجة إلى مواجهة نفسه بنفسه وجد ظلاً له في الأدب للتعبير عن مختلف المشاعر الإنسانية(1)، وكانت الملاحم أحد أهم مظاهر التطور الأدبي في العالم القديم والحديث على حدٍ سواء، حيث ظهرت عدة ملاحم تستحق الإعجاب و الاِحترام منها الإلياذة والأوديسا لدى الإغريق، و**ملحمة جلجامش** في أدب بلاد مابين النهرين، ومختلف ملاحم العصور الوسطى الحديثة، واعتبرت أعظم ما يمكن لفكر الإنسان إبداعه، وأولى لها العلماء الغربيون الاهتمام والعناية، وأقبلوا على ترجمتها من اللغات الأصلية إلى اللغات الأوروبية الحديثة وحتى العالمية منها، وعكفوا على دراستها، وطبقوا عليها نظريات النقد الحديثة وطرق الدراسة والتحليل مستعينين بنتائج العلوم الحديثة(2).

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

I- الخصائص العامة لأدب الملاحم

1- الملاحم كجنس أدبي:

1- تعريف الملحمة:

الملحمة في اللغة الإغريقية فمعناها " **القصة أو الشعر القصصي** " الذي يختص بوصف القتال، وهي بالإغريقية (**Epos**)، وفي اللغة الإنجليزية يطلق على الشعر الملحمي عبارة (**Epic – poetry**) و كلمة (**Epic**) مشتقة من (**Epos**) الإغريقية، ومعناها كلام أو حكاية، وفي اللغة الفرنسية يطلق عليها اِسم (**Epopée**)[3].

الملحمة جنس أدبي قريب من الأسطورة، يتغنى فيه الشاعر البطولي بما يختزنه تاريخ مجموعته البشرية، يتراوح عدد أبياتها بين المئات والآلاف، و هي تتناقل عبر الأجيال مشافهةً وشرط ترسيخها في الذاكرة الفردية أو الجماعية، رخامة صوت المنشد وقوة حافظته، وإنصات الجمهور إليه و هو يعرض على ظهر القلب هذه الأبيات.

2- نشأة الملاحم عند الإغريق:

خلف العصر الهيلادي الحديث والمعروف بالعصر الموكيني(1550-1150 ق.م) تراثاً ضخماً من القصص، إذ خاض ملوك هذا العصر وأمراؤه حروباً كثيرةً في الداخل والخارج، وقاموا بأعمال بطولية مع أنها كبدتهم نفقات طائلة، ترتبت عنها نتائج اقتصادية وخيمة، إلا أنها كانت المادة التي صيغت منها قصص البطولة التي اِنتقلت عبر الأجيال .

وتكاد لا توجد قصة بطولية إلا و اِرتبطت في الغالب بموقع من المواقع المعروفة أنها كانت موكينية، ولقد انتقل الجانب الأكبر من هذه القصص على لسان المنشدين المتجولين الذين كانوا يترددون على قصور الأمراء، فكانوا ينشدون بطولات أسلافهم. ولم يلبث أن تطور فن رواية القصص البطولية تدريجياً، و اِكتمل نضجه حتى صار ملاحم شعرية **كالإلياذة** التي تعد أعظم نموذج في هذا النوع من القصص، وحسب الكشوف الحديثة فإن الآخيين اقتبسوا أحد أشكال الكتابة الكريتية، واستعملوها في تدوين سجلاتهم بلغةٍ ثبت أنها كانت الصورة القديمة من اللغة الإغريقية[4].

ولكن هذا الشكل من الكتابة المسمى بالخط (B) (Linear B) أهمل خلال العصر المظلم (1150- 750 ق.م)، واِستعار الإغريق حوالي القرن الثامن ق.م أبجدية إحدى اللغات السامية الشمالية، والمرجح أنها فينيقية[5]، وجعلوها ملائمةً لطبيعتهم، وذلك بإضافة الحروف اللينة (Vowels) والتي تفتقر إليها اللغات السامية، وقد كان استعمال الكتابة لديهم في

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

أول الأمر يقتصر على أغراض محدودة، إلا أن ذلك أسهم في تثبيت الموروث الأدبي بحفظه وتدوينه حتى لا يترك للذاكرة وحدها، التي تعرضها للتحريف والضياع. والوارد أن هذه القصص لها أصول شرقية ناتجة عن أساطير اِنتشرت في منطقة شرق المتوسط أثرت في الأدب الشرقي والإغريقي على حدٍ سواء.

ورغم أن الدراسات المقارنة لا تزال في مراحلها الأولى، لكنها تشهد تقدما كبيرا ونتائج ملموسة تؤكد اِرتباط الحضارة الهيلادية بأسس أدبية ودينية وتاريخية بمنطقة الشرق القديم.

3- المصادر الشرقية للأدب الإغريقي وتأثير الملاحم البابلية:

إذا تناولنا الشعر الإغريقي فلا مفر من أن نتناول أصوله الشرقية، وبالطبع فإن مثل هذا الموضوع يحتاج دراسات متخصصة في مجلدات ضخمة، وما لا يجب تجاوزه أن فن الأدب لم يكن من اِختراع الإغريق، فقبل أن يظهر الإغريق شمال البحر الإيجي كان هذا الفن قد قطع أشواطاً من التطور و النضج في بلاد سومر وأكاد ومصر.

وأثناء منتصف الألف الثانية اِستقر الإغريق حوالي البحر الإيجي، وبدأوا يظهرون قدراتهم الحضارية، واِتصلوا بالحضارة **المينوية في كريت**، وكانت حضارات آسيا الصغرى مثل الحضارة الحيثية بالأناضول، والحضارة السامية في **أوغاريت** قد عرفت الفن الأدبي ومارسته بدرجة عالية من الوعي و الوضوح، و بلغت به مستوى من النضج و الإتقان .

وعن هذه الحضارات تعلم الإغريق بطريقة مباشرة و غير مباشرة بعض الدروس الأولية في المدنية والتحضر، وأخذوا عنهم بعض الحكايات الشعبية عن الآلهة والأبطال، ونقلوا عنهم بعض الأفكار عن النظام الكوني واللاهوتي، وكذا بعض التراتيل والأناشيد التي تمجد الآلهة أو أشباه الآلهة من البشر الأحياء والموتى. ويرى بعض علماء الأساطير أنه قد أصبح من المسلم به أن الإغريق قد أخذوا من الشرق فكرة تتابع أحكام السماء أي التسلسل في أنساب الآلهة،وهو ما عرف عند **هوميروس**، و تبلور فيما بعد في قصيدة " **أنساب الآلهة** " عند **هيزيودوس**، وتعود تسمية المحيط (Okeonos) التي جاء بها لأصول شرقية، وأنه أصل كل الأشياء، لتصبح فيما بعد أساساً لفكرة فلسفية صاغها طاليس في نظرية قائلة أن الماء هو الأصل الثابت والأزلي في الكون .

ولربما تعلم الإغريق من المشرق كذلك فن الكتابة الأدبية، أي فن التأليف الذي يختلف - بالطبع - عن حديث الحياة اليومية والكتابة المتخصصة الدقيقة من ناحية أخرى، لكن

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

الإغريق تميزوا بالقدرة الدائمة على أن يصيغوا مما يأخذونه عن غيرهم شيئاً جديداً يتفق مع طبائعهم وميولهم ورؤيتهم للحياة وأسلوب معيشتهم، حتى أنه صار من المتعذر أن نحدد بدقة مقدار ما يدينون به لحضارات الشرق القديم.

وقد اِتجه الدارسون للقول أن ما أخذوه عن الآخرين يقل بكثير عما أضافوه من عندهم، وطبق هذا الحكم لأول مرة على هوميروس لأن الملاحم الهوميرية أقل ما يقال عنها أنها تأثرت بمؤثرات شرقية، ويظهر ذلك التأثير جلياً من خلال ما أخذته الملاحم الإغريقية عن البابلية

.

الواقع أن كل الشعوب لها قصائدها وأعمالها الشعرية التي تتغنى فيها بأبطالها وأمجاد مؤسسيها وأسلافها، ولاسيما في تلك المجتمعات القديمة ذات الحضارات العريقة أو الشعوب البدائية، وتوجد العديد من هذه القصائد لا ترتقي إلى مستوى الملاحم، ومع ذلك فإنها وسيلة جيدة لنقل تقاليد تلك المجتمعات و أعرافها للأجيال التالية، خصوصاً في الوقت الذي لم تكن تعرف فيه الكتابة والتدوين، وهو ما كان عليه الحال في بلاد الإغريق في العصر الهوميري .

ولا تزال هذه القبائل تعطي أهمية بالغة لتمجيد هذه البطولات وللوضع الاجتماعي السائد، فالملاحم إذن تعبر عن روح تلك الجماعة أو القبيلة، وهي ظاهرة عامة عرفتها كل الشعوب القديمة، وذلك ما جعلها توثر في بعضها البعض، وإستعارت منها بعض العناصر نتيجة اِتصال هذه الثقافات ببعضها البعض، كاِحتمال تأثير الملاحم البابلية في الإغريقية، ومثل ذلك تأثر **الأوديسا** بملحمة **جلجامش** السابقة لها في الزمن، ذلك لأن[6] الاِتصال بين الشرق والغرب قديم حيث اِنتشرت أفكار أسطورية في منطقة شرق البحر المتوسط وأثرت في آداب الشرق الأدنى و الأدب الإغريقي، ولربما كانت كريت هي حلقة الوصل بين المنطقتين .

وقد اِمتد التشابه في الملاحم إلى المواقف و الشخصيات، ومن هذه الملامح الزيارات التي قام بها **أوديسيوس** للعالم الآخر، فذلك شبه مستعار من زيارة **أنكيدو** صديق **جلجامش** إلى عالم الموتى، كما نجد لبعض الأساطير الواردة في كتاب " أنساب الآلهة " **لهزيودوس** نظائر عند **الحيثيين**، ولا يمكن أن تكون كل هذه التشابهات وليدة الصدفة وحدها، فلقد تأثرت القصص و الأساطير تأثراً ملحوظاً بما تداول في الشرق الأدنى[7].

4- بين الملاحم البابلية والأساطير الإغريقية:

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

إن موروث الميثولوجيا الإغريقية التي شكلت تراث الحضارات الغربية[8] فيما بعد، نتج عنها ملاحم تسرد ماضيهم البدائي وما تضمنته من حديث عن البشر والآلهة، فالآلهة لا تخيف الإنسان لأنها تعكس المزايا الإنسانية ولكنها مزايا مبالغ فيها مقابل مزايا الإنسان، لأن الآلهة أسمى أناقة وأعظم قوة، كما تظهر الميثولوجيا الإغريقية الاهتمام العميق بالإنسان والقدر الذي يسير حياته،ونلاحظ هيمنة الأرباب في مصير البشر كما في أساطير بلاد الرافدين .

جسد الأدب الإغريقي الشخصية البطولية بصورة أنصاف الآلهة أو الملك أو القائد المنفذ لإرادة الآلهة و القدر،فالبطل الإغريقي لم يفكر أبدا في التمرد على النظام الاجتماعي العبودي القائم على انعدام المساواة بين العبيد ومالكيهم، لذلك جاءت صورة البطل في الملاحم الإغريقية منسجمة تماما مع الوضع الاجتماعي السائد.

أما في بلاد الرافدين كانت تدون المآثر على الرقم، فاستطاعت بفضل النتاج الفكري للمنطقة أن تنقل إلى الثقافات المجاورة، و لعل اختطاف **زيوس** الإغريقي **لأوروبا** الفينيقية أفضل تجسيد أسطوري للقاء الثقافي السامي الإغريقي الذي كانت **كريت** أول ميادينه، ففوق هذه الجزيرة ولدت أوروبا خيرة الأبطال الأماجد، و يمكن القول أن أساطير بلاد الرافدين وأساطير الإغريق تكاد تتطابق في موضوعاتها فالشخصية البطولية في أساطير المنطقتين قامت بأدوار متشابهة،**فزيوس** الذي تغنت به الإلياذة، دان له الناس جميعا فضلا عن الآلهة بالطاعة إذ صارع كل المصاعب والعمالقة فقتلهم جميعا ثم جلس بعد ذلك فوق قمة **أولمب** تحيط به بقية الآلهة .

إن شخصية **زيوس** تكاد تنطبق على الدور الذي قام به **مردوخ** حين جابه آلهة الشر والفوضى وأعاد الأمور إلى نصابها ثم جلس في معبده ينظم شؤون الكون. وبمراجعة بسيطة لملحمتي الإغريق الإلياذة والأوديسا، يمكن اكتشاف الكثير من نقاط التشابه بين أساطير وملاحم الشرق وبلاد الإغريق، حتى إن مغامرات **هرقل** تذكرنا بمغامرات **جلجامش** في ملحمته الشهيرة، وإن كان البطل في بلاد الرافدين قام بإعادة تنظيم الكون ومحاولة تغييره، فإن البطل عند الإغريق استطاع أن يقدم للبشرية المعرفة الكلية لكيفية مواجهة الحياة[9].

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

جسدت الملاحم الإغريقية القيم الإنسانية النبيلة، فمفردات الفضيلة والخير لم تتغير، وقيم الخير والشجاعة والإيثار والمروءة كلها موضوعات اعتز بها الإغريق القدامى، وهي نفس القيم التي سعت لتجسيدها الملاحم في بلاد الرافدين.

كما جسدت شخصية **هكتور** و **إياس** اللذان إلتقيا أول مرة كعدوين ثم أصبحا صديقين، الصورة التي رسمتها ملحمة **جلجامش** لعلاقة **جلجامش بأنكيدو**، فلقد بدأت علاقتهما كعدوين لكن انتهت كصديقين تضرب بصداقتهما الأمثال حتى أن إلهة الحب الإغريقية **أفرو ديتي** تشبه إلهة الحب البابلية **عشتار**[10].

إن رمزية عبور **جلجامش** إلى **ديلمون** و الحصول على سر الخلود تشبه إلى حد ما رحلة **أوديسيوس** إلى بلاد الشمس من أجل الحصول على المعرفة، حتى إن مغامرات **جلجامش** شبيهة بمغامرات **أوديسيوس** في مواجهة الأخطار و النهاية التي وصل إليها **جلجامش** عند حصوله على العشبة التي سرقتها الأفعى، وأنه عرف أن عليه العودة من حيث بدأ، وهي ذات الرحلة التي واجهها **أوديسيوس** و عاد مع رجاله من حيث أتى.

وقد أراد **أخيليوس** أن ينجز شيئا لأهل الأرض، فقامت الآلهة بمساعدته، لكن **جلجامش** اختلف عنه في أنه ذهب إلى الآلهة من أجل أن يأخذ منها سر الخلود وهو ملك للآلهة، وسعى البطل الإغريقي إلى إعادة تنظيم الكون لكن **الر افدي** سعى إلى خلاص الإنسان وخلوده.

وتشكل الملحمتان القوى الخيرة وتدفع الناس إلى الامتثال للأوامر ومحاربة قوى الشر الآمرة بالفوضى التي يجب محاربتها والقضاء عليها، وتنتهي كلتاهما إلى النتيجة ذاتها حيث سيرت الآلهة البطلين، وفي النهاية سخرت منهما حيث انتهى الصراع إلى الإخفاق والعودة إلى نقطة البدء .

5- بين الملحمة والأسطورة والتاريخ:

الفرق بين الملحمة والأسطورة هو أن الأشخاص الأساسيين في الأسطورة من الآلهة، وأحداثها تدور حول أمور خلقية وكونية وصراع الخير مع الشر وتشرح المعتقدات الدينية، أما الملحمة فتدور حول فرد من البشر، وتهتم بمنجزاته وبطولاته ومآثره،إلا أن هذا التمييز شكلي.

حيث يرى العالم " **زاكس** " أن التمييز بين الملحمة والأسطورة لا يمكن الاِلتزام به بشكل ثابت في الأدب، لأن بطلاً مثل **جلجامش** -مثلاً- قد يعامل مثل الإله في سياقات عديدة في حين هو في الأصل شخصية تاريخية، ولكن يمكن أن نلخص أهم الفروق المستخلصة بين الملحمة و الأسطورة كما يلي:

- يكاد دور الإنسان يكون معدوماً في الأسطورة، لأن الإرادة الفاعلة والمؤثرة في الحدث هي الإرادة الإلهية، وهي ذات إرادة كاملة وكلية، وهو أمر يختلف عما في الملحمة، حيث يعلو صوت الإنسان ويبرز دوره في محاولة خلق عالم جديد مع أنه في النهاية ينصاع لقرارات الآلهة و المصير الذي حددته له .
- إن موضوع الملحمة الرئيسي هو صراع الإنسان مع قدره ومآثره وأعماله وهو موضوع يحمل شطراً تاريخياً قد يعود إلى أصل واقعي، ومع ذلك لم يتحرج المؤلف من إضافة الكثير من الصفات للبطل ولاسيما تلك التي تعبر عن قدراته وشجاعته وحتى مواهبه في تفسير الأحلام، و دور الكائنات الإلهية في حياة البطل.
- جسدت الأسطورة الحديث عن موضوعات مضامينها إنسانية ولكنها موضوعات كلية، كموضوع خلق الكون وترتيبه وتنظيمه و دور الآلهة فيه، والصراع بين الخير والشر، وهي في مجملها لا دور للإنسان فيها ولا يستطيع أن يتدخل في مجرى أحداثها، ولكن منحت الإنسان جزءاً من الحرية في اِختيار طريقه في الحياة .
- كل دور أنثوي من البشر دور ثانوي لا يكاد يذكر أمام الرجل ومكانته في الملحمة، إلا أن الآلهة الأنثى تؤدي الدورالرئيسي في الأسطورة وتؤثر في مجرىالأحداث. وتصل حد التأثير في مجرى الصراع وتغيره، والمثل في ذلك الصراع الذي كان بين **هيرا** و**زيوس** في الحرب الطروادية، و**الإله تيامات والإله مردوخ**، وبين **عشتار (أنانا)** و**دوموزي** في بلاد العراق القديم، لذلك فصفة الملحمة بروز الفرد الظاهر والمؤثر في صنع الحدث مع كل ما يميز الحدث من تنوع و اِتساع .

إن التمييز بين الأسطورة والملحمة هو ضرورة أملتها الدراسات الحديثة، وهو في جوهره يؤخذ في عين الاعتبار طبيعة الأشخاص والمضمون، ولكن هذا التمييز قد لا يكون له وجود في ذاكرة مبدع النصوص، صحيح أن الاثنين ميزا بين الآلهة والإنسان ووضعا الحدود الفاصلة، ولكنهما أضفيا على الآلهة جميع صفات البشر وطباعهم باِستثناء الموت، لأن صفة الآلهة الخلود والإنسان ميت لا محالة[11].

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

أما محاولة النظر في الأسطورة و الملحمة على أنها تاريخ أحداثه جرت في عصر ما فإن الأمر كان وما يزال يجد من يناصره على مر العصور، فالأسطورة والتاريخ ينشآن عن التَّوْقِ إلى معرفة الماضي، لكنهما يفترقان في القيمة التي تنتهي إلى ذلك الأصل، فهو أصل قدسي عند الأسطورة، وأصل دنيوي مفرغ من الأسطورة عند التاريخ، الأسطورة تنظر للتاريخ باِعتباره نجلا للمشيئة الإلهية، أما التاريخ فينظر إلى موضوعه باِعتباره نجلاً للإرادة الإنسانية في جدليتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية.

ويمكن القول أن كلا من الأسطورة و التاريخ يهدف إلى أمرٍ محدد وهو منح الإنسان القدرة على فهم نفسه والشروط الموضوعة المساهمة في وجوده،ولذا فإننا نفهم التاريخ على أنه نتاج الأفعال وسلوك الإنسان إضافةً إلى قوانين التطور التي تعمل كمحركٍ للتاريخ وقوةٍ مؤثرةٍ فيه لا على أنه نتاج قرارات إلهية ومشيئتها، على الرغم من أن ما قرر حاصل وما علينا إلا الانسجام معه [12].

ولا بد من الإشارة إلى أن الأسطورة الأولية " أسطورة الخلق و التكوين " تدور أحداثها في زمن موغل في القدم لا تعرف بدايته، لذلك لا يمكن لنا رد أصولها إلى أحداث تاريخية يمكن أن ترتبط بها، وكل ما يمكننا قوله أن أحداث الأساطير الأولى كانت تدور في ذلك الزمن الذي يمكن أن نسميه بالتاريخ المقدس، و هي مرحلة وجود الإنسان، أي مرحلة إصطدم فيها السكون بالضجيج الذي أحدثه الكائن البشري الذي أزعج الآلهة في هذا الزمن الذي تحدثت عنه هذه الآلهة التي وضعت النظام للكون، والذي بدأ فيه الإنسان يخطو خطواته الأولى من أجل اِمتلاك إرادته وظهرت رغبته في التأثير في الأحداث التي تدور حوله، وأصبحت الملاحم تشكل علاقة بارزة فيه و باتت أحداثها تدور بشكل أو بآخر حول أشخاص مروا في الذاكرة البشرية و تركت أعمالهم و مآثرهم أثراً فيها.

كان على الذاكرة أن تحتفظ لنفسها بذكريات تعطي وجود الإنسان في هذا الكون قيمةً ومعنى، وإذا كان الإنسان القديم قد نسب إلى الآلهة كل الأحداث التاريخية، ورغم أنها قد حفظت نتيجة قرارات صادرة عنها، إلا أنه حين وعى ذاته بدأ ينسب أعماله لنفسه. صحيح أنه تخيلها أنها تحدث بشكل مشابهٍ للطريقة التي كان يقوم الآلهة بعملها، ولكن المؤكد أنه في رحلة اِختراع الكتابة واِكتشاف الزراعة وأنظمة الري واِنتقاله من السكن في البراري إلى السكن المشيد مما هو موجود في الطبيعة، فإنه قد وعى أن الزمن زمنه وعليه أن يقوم بمحاولة فرض تاريخه و قراراته على مجرى الأحداث التي يعيشها، لأنه في هذه

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

المرحلة بدأ التاريخ يخرج من قدسيته، والإنسان في هذه المرحلة بدأ يعرف نفسه، وبدأ يدرك ما يحصل له، ويمكن أن نلتمس في النصوص القديمة أثر الرجال العظام في صنع الحدث، وبالتالي في صنع التاريخ الذي مر بنا.

ونختم هذا بالقول أننا لا نستطيع أن ننظر للأسطورة والملحمة على أنهما تاريخ لوقائع حدثت بالفعل، مع الإشارة إلى أن هذا الحدث الذي هو موضوع القصة قد يكون ذا أساس تاريخي.

6- الملاحم والدراسات التاريخية:

إن المشكلة التي تواجه الباحث في الأنثروبولوجيا والتاريخ وغيرها من مجالات الدراسة الأخرى المهتمة بدراسة الملاحم، و غيرها من أشكال الإبداع الأدبي والفني القديم، هي إلى أي حد يمكن اِعتبار الملحمة سجلاً ليس فقط للأحداث التاريخية الحقيقية التي قام بها أشخاص حقيقيون، ولكن أيضاً سجلاً للثقافة والنظم والأوضاع الإجتماعية السائدة في المجتمع الذي أنتج تلك الملحمة ؟ أي أن السؤال المهم هنا هو: إلى أي حد يمكن اِعتبار الملحمة هنا تصوراً للثقافة والعلاقات الاجتماعية السائدة بين أعضاء ذلك المجتمع ؟

والواقع أن هذه التساؤلات كثيراً ما ترد إلى أذهان المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية الذين يحاولون الإجابة عنها بأساليبهم وطرقهم الخاصة، وفي حدود الإمكانيات المتاحة لهم في إطار ذلك التخصص، وفي الأغلب إن هؤلاء العلماء يكتفون بإعطاء فكرةٍ عامة على الملامح الأساسية للبيئة الاجتماعية التي نشأت فيها الملحمة، وعليها يتعرضون للبحث فيما إذا كانت هذه الملاحم تسجل بدقةٍ الوقائع المختلفة عن الحياة الاجتماعية، وتعبر عن المبادئ التي توجه الثقافة وتتحكم في العلاقات بين الناس.

لقد اِهتم الدارسون بدراسة ظروف نشأة الملحمة الإغريقية والأوضاع المناخية والاجتماعية والثقافية المحيطة بها، وكذلك الجانب السكاني في بلاد الإغريق بشكل عام، ثم تعرضوا لظروف و ملابسات نشأة الإلياذة والأوديسا،ويرى البعض أن الإلياذة ماض مثالي أقرب إلى روح **هوميروس** من الأوديسا رغم أنها خضعت للمراجعة والتهذيب بشكلٍ لم يحدث للأوديسا، فالملحمة صورة للماضي المثالي أي الماضي الذي لم يتحقق أبداً في الواقع والذي يعبر عليه الشاعر بطريقةٍ رومانسية، حيث يجعل أشخاص الملحمة يتحدثون بلغةٍ لم يكن

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

عامة الناس يتكلمها في حياتهم اليومية، ويتصرفون بطريقةٍ لا تمت بصلةٍ إلى الواقع والسلوك العادي المألوف لتلك الأيام .

لكن التسليم بهذا الموقف وأن الملاحم تعطي صورةً مثالية وليست واقعية عن الماضي، يعني أنه لا يمكن اِعتبارها سجلاً للثقافات، وأنه من الصحيح القول أن العمل الأدبي لا يعطي صورة (أنثروبولوجية) دقيقة للثقافة والمجتمع الذي نشأ فيه.

ومهما كانت درجة فهم المؤلف لمكونات تلك الثقافة و عناصر الحياة الاجتماعية، والنزهة بالتعبير، حيث يقدم الشاعر في الملحمة صورة فنية واضحة واعية لعصر قديم من عصور البطولة والفروسية، فمن الطبيعي أن ينزه البطل من كل ما يسيء إليه، فالبطل في الملحمة الإغريقية يستعمل الأسلحة المصنوعة من الحديد وليس من النحاس الأحمر أو البرونز -وهو المعدن المستعمل في تلك الفترة- لأن الحديد أكثر قوةً وصلابةً ويليق بالبطل الإغريقي، ولم يكن بطل الملحمة يأكل السمك و اللحم المسلوق -لأن ذلك يتنافى مع معنى البطولة ويتعارض مع عصرها- فكان يأكل لحماً مشوياً بعد أن كان يقتطعه بسيفه من لحم حيوان.

وعلى العكس من ذلك يذهب **السير موريس باورا** (**C. M Bowra**)[13] إلى القول بأن الناس يتناقلون الشعر الملحمي ويعتقدون أن الأحداث الوارد ذكرها حدثت بحذافيرها، وأنها بذلك تعتبر سجلاً آمناً ودقيقاً لذلك الماضي الذي يشير إليه، بل إنهم كثيراً ما يستشهدون بتلك الأحداث، بل أكثر من ذلك فإنهم يعودون إليها في كثيرٍ من الأمور المتعلقة بالأرض وعلاقات النسب والمصاهرة والاِنحدار من أسلافٍ وأجدادٍ معينين، وذلك بالرجوع إلى ما قد يكون في تلك الأشعار من إشارات في تلك المسائل .

وهو ما فعله الإغريق حوالي القرنين السادس و لخامس قبل الميلاد إذ كانوا ينظرون للأشعار الهوميرية على أنها تسجيل لحقائق واقعية وأشخاص حقيقيين، وأن ما حدث في الماضي يمكن أن يسهل بالتالي فهم الحاضر، بل إن بعض المؤرخون القدماء يستشهدون بتلك القصائد والأشعار ويعودون إليها لمعرفة وفهم ما كان يدور في واقع الحياة في تلك الفترات القديمة من التاريخ وفي تلك المجتمعات والثقافات التي أنتجت تلك الأشعار والقصائد الملحمية.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

هذا الاِختلاف في الرأي له مثيله في الكتابات الحديثة في علم الأنثروبولوجيا الذي يهتم بدراسة التراث الشفهي المتوارث والحكايات والقصص والأساطير ودلالتها الاجتماعية، حتى إن بعض العلماء يقرون أن هذا التراث -وبشكلٍ خاص الأساطير- تعكس أنماطاً اِجتماعية وثقافية لا تزال قائمة إلى غاية الآن، أو أنها على الأقل تسجل بدرجةٍ عالية من الدقة ولكن بطريقة رمزية(14) العلاقات الاجتماعية والثقافية التي كانت قائمة في فترات سابقة في حياة المجتمع ثم اِندثرت واِختفت، ولكن أعيد تركيبها من قراءة تلك الأساطير وترجمتها إلى علاقات كيانية بين أفراد المجتمع .

أما البعض الآخر فإنهم على العكس من ذلك تماماً يرون أن الأساطير مجرد تعبيرات رمزية عن أوضاع مثالية لم تتحقق، ولذلك فهي تعطينا صورة ذهنية مجردة عن الماضي المثالي، لذا فهي صورة ليس لها وجود إلا في العقل، و رغم هذا فإنه يصعب على الباحث سواء كان مؤرخا أو عالم أنثروبولوجيا أو متخصصا في الدراسات الكلاسيكية أن يأخذ كثيرا من الأحداث التي ورد ذكرها في الملاحم على أنها حقائق ووقائع حدثت فعلا بكل تفاصيلها.

إن بعض الأحداث لم تنسبها الملاحم إلى أشخاص معينين بذاتهم وكان لهم وجود فعلي بداخلها، فكثيرها من نسج المخيلة الإبداعية وهناك أمور لم تحدث على الإطلاق، أو أنها قد تنسب إلى أبطال وشخصيات الملاحم وخصائص وأفعال غريبة عنهم تماماً.

وهذا الجانب هو جزء من الصفة الفنية التي يلجأ إليها الشاعر لاِستعمال عناصر الملحمة، أو أنه يأتي نتيجة الإضافات التي تدخل على الملحمة في المراحل التالية على يد الرواة والمنشدين اِستجابةً لرغبات الجمهور أو وسيلة لإثارة اِهتماماتهم وحماسهم على ما سبق وذكرناه، وهذا معناه أن الحقائق التاريخية التي يرد ذكرها في الملاحم تخضع للكثير من التشويه الذي قد يصل في بعض الأحيان إلى حد يصعب تصديقه أو قبوله، ومع ذلك فإن هذا المزج بين الحقيقة والخيال يعطينا صورة جمالية وفنية رائعة.

ولكن حين يتعلق الأمر بتحديد دلالة تاريخية واِجتماعية وتخيلاً أنثروبولوجياً للملحمة وأحداثها، فإن الملحمة تتطلب ضرورة التميز بين الواقع والخيال، ورسم الحدود الفاصلة بين الاِثنين حتى يمكن فهم مكونات الثقافة ومقومات النظم والعلاقات الاِجتماعية التي تسجلها الملحمة أو على الأقل الخروج منها بصورة معقولة عن هذه النظم والأوضاع والعلاقات.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

وتكاد كل الملاحم يكون فيها عنصر خرافي أو أسطوري أو غير حقيقي على أقل تقدير، ولكن ذلك لا ينبغي أن يشكك في صدق واقعيتها، وأن هذا العنصر الخرافي يلقي بعض ضلال الريب والشك على مدى إمكان الاعتماد على الملاحم كمصدر للمعلومات على الماضي وعلى الثقافة والمجتمع اللذين عاشت فيهما الملحمة، بل ذلك العنصر الخرافي يمكن أن يكشف لنا جوانب جديدة في أسلوب وطريقة تفكير تلك الشعوب أثناء حقبة تأليف الملحمة وعن بعض القيم السائدة عندهم، ذلك على إعتبار أن تلك العناصر الخرافية أو المتخيلة هي ترجمة لتلك المبادئ والقيم والتصورات الذهنية الجمعية، بل تكون إسقاطات لبعض الرغبات الكامنة المكبوتة لدى أعضاء المجتمع .

ومع ذلك فالملاحم تسجل أحداثاً أغفلها التاريخ و كادت أن تمحى من الذاكرة أو لم تهتم كتب التاريخ المتخصصة بتسجيلها لسببٍ من الأسباب، والمثال الذي يستشهد به بعض الكتاب على ذلك هو ملحمة " **السِّيد** " الإسبانية التي يبدو أن مؤلفها كان من رجال **الأكليروس**، لذلك كان على درجةٍ من العلم والمعرفة فجاء وصفه لحروب بلاد **المورة** أقرب إلى الحقيقة والواقع مما يصعب رفضها أو عدم قبولها و التصديق بها، خاصةً أن أغلب شخصيات الملحمة أشخاص حقيقيون وكان لهم وجود حقيقي، غير أنه لا توجد أدلة وبيانات تتعارض مع ما جاء في الملحمة، ولكن ذلك لا يمنع من وجود بعض عناصر الخيال في معالجة تلك الحقائق .

وقد تكون ملحمة **السِّيد** حالة استثنائية وفريدة في ذلك، لكن ما يهم هنا هو ما سبق وذكرناه من ضرورة التمييز في أي ملحمة بين الحقيقة والخيال مع عدم إهدار قيمة العناصر المتخيلة ودلالتها الإجتماعية والثقافية في الوقت ذاته، وأن هذا التداخل بين الواقع والخيال هو الذي يعطي للملحمة بعدها الإنساني و قوتها و عمقها، حيث تفرض الروح الإبداعية نمطها على المعلومات المتوفرة لتخلق منها شيئاً جديداً رغم كون هذه الروح الإبداعية مصدراً من مصادر تشويه التاريخ،والإبتعاد بالملحمة عن الحقيقة والواقع والصدق التاريخي، لأن نظرة الشاعر للتاريخ هي نظرة درامية وليست نظرة تاريخية .

فالنظرة الدرامية للأشياء هي التي تجعل الشاعر يخلط بين الأحداث والشخصيات لكي يبدع لنا شيئاً جديداً لا يتفق تماماً مع الواقع على أن معظم -إن لم نقل كل- العناصر مستمدة من الواقع نفسه .

وكثيراً ما تؤدي رغبة الشاعر الملحمي إلى تبسيط الأمور و تقديمها في صورةٍ مركزةٍ إلى استعابتها باِختزال العصور الزمنية ودمج الأحداث والوقائع المختلفة بعضها مع بعض وإغفال فوارق الزمان والمكان، مما يتعارض تماماً مع تسلسل الأحداث التاريخية، فهو يأخذ من الأحداث المتمايزة والمتباعدة بعض العناصر التي يدمجها ليخرج بصورةٍ جديدةٍ متكاملة تلخص الوقائع الأصلية، لكنها تختلف عنها كل الاِختلاف، وقد يكون الدافع وراء تلك الرغبة إبراز جوانب وأحداث معينة بالذات لها دلالات هامة.

ولكن كل ذلك من شأنه أن يجعل الشعر الملحمي بديلاً هزيلاً عن التاريخ، وعن الوصف الأنثروبولوجي للحياة الاِجتماعية والثقافية،وإن كان هذا لا ينفي تقديم الباحث الجاد المتعمق بعض المفاتيح الأساسية لفهم المجتمع والثقافة أو على الأقل الإطار الاِجتماعي والثقافي العام الذي تتحرك فيه شخوص الملحمة وأحداثها والقيم والمبادئ التي تعتمد عليها، مادام ثمة شك في أنها تقدم وصفاً مقبولاً للواقع الاِجتماعي الفعلي .

وعلى أية حال فإن هذه مسألة هامة تلقى مزيداً من الاِهتمام لدى الباحث الذي يعنى بدراسة التراث في مختلف الثقافات، ويريد أن يخرج عن ذلك النطاق الضيق الذي وضعه الكثير من علماء الأنثروبولوجيا لأنفسهم حين حصروا جهودهم في دراسة المجتمعات البدائية[16].

7- أهمية الياذة هوميروس في التاريخ الحضاري لبلاد الاغريق:

لقد كانت حرب طروادة من الحوادث العظيمة في التاريخ الإغريقي المتناقل عبر الأجيال، ولقد كانت هذه الأخبار والقصص والأساطير والقصائد تعود إلى عصور مختلفة، فعندما جمع هوميروس هذه المواد وأدمجها في ملحمته بتعابير أيونية أخذ من اللهجة الأيولية بعض التعابير، فليس غريبا أن ينحرف وصف الأسلحة والأزياء القديمة عن الحقيقة التاريخية، لأن هوميروس يتكلم عن أمور مضى عليها أربعة عصور، وهو لا يعرفها إلا عن طريق السماع، عدا ذلك فهو ليس مؤرخا يحرص على صحة الوقائع، بل إنه بالدرجة الأولى شاعر يعتمد على الخيال، ويخترع أشياء كثيرة حيث لا يهتم إلا بجمال الأسلوب والمهارة الفنية، وتجدر الإشارة إلى أن لشعره لغة خاصة تتضمن كثيرا من التعابير القديمة المتوازنة مع مختلف العصور.

لقد بلغ هوميروس هدفه الفني على أحسن وجه، و استطاع أن يبدع أجمل أثر في تاريخ الآداب العالمية، وبالرغم من أن الإلياذة تضمنت خيال الشاعر، إلا أن هذا الخيال

قد اقتبس من الواقع، وركب حسب تصور الشاعر،ومهما كانت فإنها تصورات عصر الشاعر التي تمثل لنا الماضي البعيد، وهي من المصادر التاريخية التي تساعدنا على على معرفة الكثير من الحوادث التي أثبتت التنقيبات الأثرية في طروادة و موكيناي أن لتلك الصور علاقة وثيقة بالواقع (17).

لقد أمدتنا الإلياذة بمعلومات عن الشهرين الأخيرين من حرب طروادة ومن الممكن استيفاء معلومات أخرى تاريخية من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وبعبارة أخرى فإن السؤال الذي يطرح نفسه:أين تصنف الإلياذة ؟ هل تعتبر مصدرا أثريا ؟ أم أنها مصدر أدبي ؟ وقيمة هذا الطرح أن للإلياذة أهميتها بالنسبة لما نستطيع أن نستقيه من معلومات منها، هناك فرق كبير بين المصدر الأثري القاطع والجازم في الحدث التاريخي مثل (النقوش، أوراق البردي ...) وبين المصدر الأدبي الذي يعتبر ثانويا بالموازاة مع المصدر الأثري، وبه احتمال للشك، حيث أنه انعكاس لما تخفيه شخصية كاتبه وميوله ومؤثراته في عرض المصدر(18).

ومن ثمة يجب أن نحتاط حينما نقيم أشعار هوميروس وذلك بحسب اعتبارنا لها إما كمصدر أدبي، أو كمصدر أثري، وأمام التساؤلات التي طرحت -فيما سبق- حول شخصية هوميروس، والغموض الذي يحيط بها،وخاصة مدى معاصرته للأحداث التي كتبها في الإلياذة، وإن كان هوميروس حقا قد عاصر الأحداث -أحداث الحرب الطروادية- لذا فإننا سنقيم أشعاره باعتبارها من المصادر الجازمة الموثوق بها، أما إن كان هوميروس لم يعاصر الحرب، ولم يشاهدها، فإننا سنستبعدها كمصدر أثري ووثائقي جازم في الحدث التاريخي، ومن ثمة فإن المعلومات التي نستقيها عن حياة الإغريق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ستحدد أهميتها بالنظر لقيمة المصدر .

وبالرغم من ذلك فإن الآراء أجمعت على أن العصر الذي عاش فيه هوميروس كان ما بين القرنين التاسع و الثامن قبل الميلاد، وذلك بعد أن أثبت الباحثون أن لغة الإلياذة **الأيونية** هي لغة القرن التاسع قبل الميلاد، ومنه يتضح لنا أن هوميروس لم يعاصر حرب طروادة التي كانت حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد،بل إنه كتب عنها بعد ذلك بفترة طويلة خلال القرن التاسع قبل الميلاد، هو ما يجعلنا نعتبر أشعار هوميروس ونقيمها -خاصة الإلياذة- باعتبارها من المصادر غير الأثرية الجازمة في الحدث التاريخي.

ولكن هذا لا يقلل من قيمتها كمصدر له أهمية نستطيع أن نستقي منه معلوماتنا[19] عن تاريخ الإغريق خلال تلك الفترة، وبما أن الإلياذة كتبت بعد حرب طروادة فقد تخللها كثير من التحريف والزيادات[20] ضاعت كثير من حقائق الحرب، التي أدارها هوميروس في ملحمته بصورة أدبية عكست كثيرا من الخيال و مرئيات الشاعر، هذا إلى جانب نزعته الفردية و ميوله في إظهار و إغفال الحقائق .

ورغم كل ما تقدم فإننا لا نقلل من شأن الإلياذة،بل نضعها في مصاف المصادر الأدبية الهامة التي تفيدنا بمعلومات هامة تغطي فترة هامة من تاريخ الإغريق السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والحضاري[21] .

وإذا أردنا التدقيق في صفة الصدق التي تتميز بها الإلياذة خاصة والأشعار الهوميرية بصفة عامة، وهل هذه الأشعار تمثل حقائق تاريخية نعتمد عليها في التاريخ لشعب وحضارة الإغريق. ولكي نتمكن من الحكم على هذا نتأمل ما ورد في وصف الشاعر عن حرب طروادة واختطاف هيلين وصراع الأرباب .... الخ .فنلاحظ أن الشاعر كاد يغرق في الخيال لدرجة ما لا يمكن أن يتلاءم مع الحقائق المعقولة. ومن ثم فان صفة الصدق لا تنطبق على هذه الحوادث التي أوردها الشاعر، واعتبارها حقائق تاريخية لا تقبل الجدال، فإنما ينطبق الصدق على الاتجاه السائد دون التفاصيل الفردية التي تخص المناسبات بعينها أو وقائع محدودة أو أفراد بالذات .

ولتوضيح الفكرة أكثر، يمكن تقسيم ما ذكره هوميروس الى أقسام ثلاثة يمكن من خلالها التاريخ للمجتمع الإغريقي القديم .

القسم الأول فهو وصف لحياتهم اليومية، سواء في البيت أو السوق أو الحقل أو المرعى أو ميدان القتال، بما يصاحبه من وصف للأدوات والأسلحة والولائم والاحتفالات والاستعداد للحرب، فهذا الوصف يكاد يكون وصفا تقريريا يمكن الاعتماد عليه اعتمادا يكاد يكون تاما.

ثم يأتي **القسم الثاني**، وهو يخص نظرة الإغريق الى القيم الاجتماعية، مثل مكانة المرأة ونظرة الإغريق الى الدين والآلهة، ومدى اعتقادهم بوجود هؤلاء وقدرتهم، وكذلك موقف الإغريق من القانون وما كان يسودهم من تنظيم سياسي واقتصادي ومن تعايش طبقي

واجتماعي. وهذا القسم يتجلى في صورة قصص ومناظر أو لوحات نستطيع أن نتخذها كأمثلة رمزية نستنتج منها الأوضاع والمواقف[22] التي نريد دراستها.

أما **القسم الثالث**، يتعلق بآمال الإغريق وأمانيهم وأفكارهم عن المجتمع المثالي الذي لا تظهر فيه عيوب مجتمعهم الذي يعيشون فيه، وهي ما يوردها الشاعر على لسان شخصياته، فيجعل هذه الشخصيات تقارن بين ما كان سائدا فعلا وبين ما كانوا يتمنونه أو يرون أنه ينبغي أن يكون . وقيمة هذه الأفكار، هي إنها تعكس لنا فكرة الإغريق عن مجتمعهم ومدى قبولهم التيارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسوده، ومن ثم فهي بداية جذرية للفكر السياسي الذي وصل قمته بعد ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد[23].

الهوامش:

(1)- د. محمد محمد حسن وهبة، الرواية اليونانية القديمة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط 1 القاهرة 1997، ص.ص 5 – 6

(2)- د. أحمد أبو زيد، كتاب الملاحم،المجلد السادس عشر، مجلة عالم الفكر، العدد الأول- أفريل 1985، ص 1.

(3)- نور الهدى لوشن، وقفة مع الأدب الملحمي . 2006، ص 10.

(4)- G . Golty . G , la civilization egenne , la renaissance de livre , Paris , 1969 , P 423.

(5)- Ibid , P 425.

(6)- Emile Burnouf ,. Histoire de la literature grecque T 1 , Paris, 1069 , P 3.

(7)- كانت هناك إستعارات ثقافية إنعكست دون شك في بعض العادات و التقاليد و النظم الاجتماعية و كذلك الإبداع الفني و الأدبي. ومشكلة الإحتكاك الثقافي في هذه الإستعارات مشكلة محورية في الأنثروبولوجيا الثقافية، حيث ظهرت عدة نظريات قائمة على الظن و التخمين بسبب قلة المعلومات المتاحة في تلك الفترة، ومع أن المتخصصين في التاريخ القديم يولون أهمية كبيرة لهذا النوع من الدراسات،إلا أن التأثيرات الثقافية عند الشعوب القديمة لا تحظى بإهتمام معظم علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين، بالرغم من أنهم يستطيعون التوصل إلى نتائج مهمة باستخدام أساليبهم في الدراسة والتحليل خصوصاً بعد أن توفرت معلومات عن تلك الحضارات والثقافات والمجتمعات بدرجة لم تكن ميسورة لعلماء القرن الماضي.

- انظر: أحمد أبو زيد، المرجع السابق، ص 10 .

(8)- F. G Elich hoft , poésie héroïque de l'indiens (comparée a l'épopée Grecque et Latin) August Duron, Paris 1860 , P 52.

(9)- فيروميتوس سرق النار التي هي رمز لطموح البشر المعرفي و العلمي و هي التي منحت الإغريق المعارف الإنسانية التي واجه الحياة بها، لذلك دافع البطل هو تجسيد تطلعات العقل البشري الراغب في السيطرة على الكون .

- العابو عبد الرحمان، البطولة في أساطير الشرق القديم و ملاحمه، رسالة دكتوراه 2010 ، ص 112

(10)- هناك تشابه في خلق البطلين هرقل وجلجامش،فكلاهما من أصل إلهي وأصل بشري، وكلاهما يخوض مغامرات فجلجامش يقتل (خمبابا) و يقتل هرقل الأسد الذي بث في المدينة الرعب و الخوف، و خاض البطلان المعارك لنشر الخير و التخلص من الشر .

-المرجع السابق، ص 115.

(11)- Emile Burnouf , op . cit , P 108 .

(12)- عبد الرحمان العابو، المرجع السابق، ص 92 .

(13)- C . M Bowra , op . cit , P1.

(14)- Emile Burnouf , op . cit , P116 .

(15)- Victor Duruy histoire de Grece , Tome I Gay Austria , 1968 , P150 .

(16)- Morris Grousel , La civilisation de la Grece antique , Paris 1932 , P 31 .

(17)- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ج 1، ط 1، دمشق – سوريا، ص 112 .

(18)- Etienne Roland et autre , L'archéologie historique de la Grèce antique , P 48

(19)- عاصم أحمد حسين، المرجع السابق، ص ص 114 ..... 117،

(20)- Robert Flaceliere , l'histoire littéraire de la Grece , Fayord , P 22 .

(21)- Maurice Groiset , op . cit , P 31

(22)- Gaston Cougny , part antique , 2 partie (la Grece – Rome) , Paris , 1893 , P 24

(23)- Groiset Moris , op . cit , P 13